قضية المرأة أيضا

للأستاذ زكريا ابراهيم

إذا كان الرجل والمرأة سواء ، اللهم إلا فيما يرجع إلى الجنس ، فلا بدّ لنا إذن من أن نستند إلى البحوث الفسيولوجية الخاصّة بمسألة التفرقة بين الجنسين ، حتى نستطيع أن نفصل فى « قضية المرأة » فصلاً علميًّا صحيحاً . والبحوث الجنسيّة التى أجريت فى هذا الصدد كثيرة متعدّدة ، ولكن النتائج التى تُستخلَص منها مختلفة متعارضة . وسنحاول فى هذا البحث الموجز أن نجد أساساً مشتركا بين كل هذه البحوث ، نجعله عمدة لنا فى الوصول إلى رأى صحيح تنحلّ به مشكلة الجنسين ، وبالتالى قضية المرأة .

وأول رأى يواجهنا فى مسألة الجنسين ، هو ذلك الرأى القديم الذى ينظر إلى المرأة والرجل على أنهما جنسان مختلفان ، يقوم كل منهما بنفسه ، ويستقلّ كلٌّ منهما عن الآخر . وهذا الرأى يقضى بأن يكون الرجل متميّزاً كل التميّز من المرأة ، لأن جنس الذكر أرقى وأكمل من جنس الأنثى ، ولأنّ المرأة هي التى جُبِلَتْ من ضلع الرجل ، لا العكس ! وقد دأب الناس على أن يأخذوا بهذا الرأى ، حتى أن أىّ شك يُثار حول رجولة فرد ، كان كافياً لأن يثور له ذلك الفرد ، باعتبار أنه إهانة عظيمة لا تُغتفر ! وليس من شكّ فى أن قصّة الخَلْق — كما وردت فى التوراة — كانت عاملاً من العوامل التى أدّت إلى اعتبار الرجل أرقى من المرأة ، كما يظهر من استشهاد القدّيس بولس بها ، فى معرض المفاضلة بين الرجل والمرأة (١) .

ولكن البحوث العلمية التى قام بها علماء « الجنس » والتجارب المتنوّعة التى قاموا بإجرائها ، تدلّنا على أن الأدنى إلى الصواب أن تكون الأنثى هي الأصل الذى اشتُقّ منه الذكر . فالمرأة هى « الصورة الأولى » للنوع الإنسانى ، والرجل إنما هو « الصورة الثانية » التى تفرّعت من ذلك الأصل ، ومعنى هذا أن الذكر ينطوى فى أنوثته على أنثى كامنة ، هى الجنس الأصلىّ الذى تنزع إليه كلُّ الشذّيات(١) . وهذه الأنثى الكامنة هى على استعداد لأن تظهر بشكل واضح ، حينما تستأصل تلك الغدد الزائدة التى تعوق ظهورها — فليست الفروق الجنسية بين الذكر والأنثى إذن ، فروقاً جوهرية أصلية ، بل هى فروق فرعية مستجدة . وبعبارة أخرى يمكن أن يُقال إن التركيب الجنسى لأفراد كل فصيلة ، له أساس مشترك يحتمل التذكير والتأنيث ، وهذا ما يعبّر عنه بالإمكانية الجنسية المتعادلة équipotentialité sexuelle .

من هذه الحقيقة البيولوجية ، يتبين لنا خطأ النظرة القديمة إلى الجنس . فليس الذكر والأنثى وَحْدتين مستقلتين تقوم كل منهما بذاتها ، وإنما هما حالتان متماسّتان ، قد يبلغ بهما التقارب أن يندمجا معاً ليكوّنا حالة مختلطة هى ما يعرف بالخُنثى Hermaphrodite فليس فى استطاعتنا أن نتحدث عن « النوع المذكّر » Male type ، و « النوع المؤنّث » Female type ، بل عن تلك السلسلة الطويلة من الحالات الجنسية التى تمتدّ ابتداءً من الخنثى حتى تلك الأشكال المعتدلة التى تكاد تكون سويّةً طبيعية(٢) .

هذه هى النظرة الصحيحة إلى الجنس ، وهى نظرة تساعدنا على أن نفهم تلك الحالات الكثيرة التى طالما نظر إليها الناس على أنها انحرافات غريبة أو حالات شاذة ، مثل حالة « التخنث » وحالة « حبّ الجنس للجنس » Homosexuality ، ذلك أن التجارب قد دلتنا على أنه ليس من الحق أن هناك رجولة خالصة أو أنوثة خالصة . فإذا لم يكن فى استطاعة أحد أن يفخر بأنه رجل كامل الرجولة فأى حق يكون لنا إذا حكمنا بالغرابة والشذوذ على قوم بلغت درجة الرجولة عندهم حدًّا أدنى بقليل مما يوجد لدينا ؟ إن كل ما هنالك هو أن هؤلاء القوم قد أخذوا من الجنس الآخر قسطاً أكبر مما لدينا ، فلذلك ظهرت حالة « الاختلاط » عندهم بشكل أوضح . والتجارب قد دلتنا على أن التميز الجنسى

(١) يقول القديس بولس فى رسالته إلى تلميذه تيموثاوس : « لأن آدم جبل أولا ثم حواء ؛ وآدم لم يغو ، لكن المرأة أغويت فوقعت فى التعدى » . ويقول أيضاً فى رسالته إلى أهل كورنثوس : « .. إن الرجل لم يؤخذ من المرأة ، بل المرأة هى التى أخذت من الرجل . والرجل لم يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة هى التى خلقت من أجل الرجل »

(١) ارجع إلى الفصل الثانى من كتاب « فسيولوجية الجنس » لكنث وولكر ص ٢٨ .

(٢) هذه نظرة مارانيون Maranon إلى الجنس ، وهو يبسطها بوضوح فى كتابه القيم : « تطور الجنس » .

التامّ، يكاد يكون معدوماً . فالرجل الخالص ، والمرأة الخالصة ، هما حالتان قلما يلتقي بهما المرء في الظروف العادية — كما يقول بيدل Biedel — وإذن فإن كل ما يميزنا عن أولئك الذين نعدهم شاذين منحرفين ، هو أن الإفرازات الهرمونية الموجودة لدينا أكثر مما يوجد لديهم . وقد كنا جميعاً في البداية ، ذوي نزعة جنسية إلى نفس الجنس بالقوة Potential homosexuals ، ولكننا لحسن الحظ قد تحولنا إلى الطريق الصحيح ، بافتراقنا عنهم وأصبحنا أميز من حيث الذكورة .

يتبين لنا من هذه النظرة الجديدة إلى الجنس أن الناس يخطئون إذ يعمّمون أحكامهم ، فيقولون بوجود فروق جنسية كبيرة بين الرجل والمرأة ، وبخاصة حول موقف كل منهما من الزواج والحياة الجنسية . فليس الرجل والمرأة كالقطب الموجب والقطب السالب ، وإنما الصلة بينهما أبعد ما تكون عن هذا التصوير الساذج البسيط . وعلى الرغم من أن الخلط بين « الإيجاب » والذكورة ، وبين « السلب » والأنوثة ، قد يبدو لنا حقيقة بيولوجية ، فإن الواقع أنه خَلْطٌ لا أساس له — كما بين ذلك فرويد —(١) . وحتى في الناحية الجنسية الخالصة ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن موقف المرأة موقف سلبيٌّ خالص .

أما تلك التعميمات التي قد نضطر إليها لبيان بعض الفروق الموجودة بين الجنسين ، فإنها قد تضللنا إذا اعتبرنا تلك الفروق عامة على الإطلاق . حقا إن تلك الصفات التي ننسبها إلى كل من الجنسين ، قد تكون صحيحة بالنسبة إلى الأفراد الذين يشغلون أعلى السُّلَّم أو أسفله(٢) ، أعني بالنسبة إلى الرجل الحقيق والمرأة الحقيقية (وهذان قلما يوجدان) ، ولكنها تقل شيئا فشيئا حينما نقترب من الرجل المتأنث والمرأة المتذكرة (أو المترجلة) . فإذا كنا قد فرقنا بين الرجل والمرأة (في البحث السابق) من بعض النواحي الجنسية والنفسية ، فان من الواجب أن نذكر القارىء هنا أن هذه التفرقة ليست عامة مطلقة ، وإنما هي تطبق في دائرة محدودة فقط ؛ وثمّ أفرادٌ كثيرون لا تصحّ بالنسبة إليهم .

وإذا كانت هذه هي حقيقة الصلة بين الرجل والمرأة ، فما أحرانا بأن نبتسم حينما نلتقي بأولئك الذين يفخرون برجولتهم ، متناسين أن هناك « امرأة » تكمن في قرارة نفوسهم ! « حقاً إن هؤلاء قد لا تكون بيوتهم كلها مصنوعة من الزجاج ، ولكنهم مع ذلك ينسون أن نوافذ بيوتهم مصنوعة من الزجاج ، فما يليق بهم أن يقذفوا الآخرين بالأحجار ! »(١) .

لقد دنت الشقة بين الرجل والمرأة ؟ فكيف بها بين الرجل والرجل؟ إن الرجولة الخالصة قد أصبحت أسطورة من الأساطير ، فلنترك لأولئك الواهمين تلك الأسطورة الرائعة ، أسطورة الرجولة المزعومة ! أما نحن فحسبنا أن نكون « إنسانيين » ، ننظر إلى الرجل على أنه إنسان ، وننظر إلى « المرأة » على أنها إنسان ، ونعتبر أن جوهر الإنسانية واحدٌ في كل منهما ؟

زكريا ابراهيم

(١) S. Freud : "Instincts and their Vicissitudes", 1915 .

(٢) هذا باعتبار أن الحالات الجنسية تكون سلماً échelle له درجات متتالية

(١) المقصود بهذه العبارة أن حظ الناس من الرجولة يختلف قوة وضعفاً ، ولكن جانب الأنوثة الكامنة موجود في كلتا الحالتين . فليس هناك معنى لأن تتهم الآخرين بنقص الرجولة ، ما دامت الرجولة الكاملة معدومة . . .

طب النفس العملي

الضعف أو الشذوذ الجنسي . الخوف من المرض أو الجنون . فقدان الطمأنينة أو الثقة بالنفس متاعب نفسية يكشف عنها بأسلوب عملي

« الأمراض النفسية وكيف تعالج »

المؤلف الذي أعيدت طبعته بعد صدوره بعشرين يوم أخرجه الأستاذ أحمد السنوسي أخصائي الحالات النفسية وقدمه الدكتور أمير بقطر . ثمن النسخة ٦٠ قرشا و٧ للبريد . يطلب من المكتبات الشهيرة ومن المؤلف ٣٣ شارع الملكة فريدة بالقاهرة